تقديم

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد . .

هذا الكتاب نشره جَدي السيد الإمام محمد رشيد رضا الحسيني الحسني في سني عمره الخيرة، بل إن الطبعة الثالثة قد صدرت قبل أقل من ثلاثة أشهر من وفاته، بعد أن نقحة ثلاث مرات. وكان لهذا الكتاب صدىً كبير في العالم، وتُرجم إلى عدة لغات، وكما هي عادته فعنوان الكتاب هو ملخص محتوى الكتاب.

وبتعريف سريع عن جَدي أقول:

ولد محمد رشيد رضا عام 1282هـ الموافق 1865م، في بلدة القلمون، طرابلس، منتمياً إلى أسرة كريمة النسب من العترة النبوية الشريفة. وبيت آل رضا، بيت المشايخ، هو بيت علم ودِين وقيادة وريادة، فلقب (شيخ) في لبنان لا يعني فقط العلم والدِين ولكنه يطلق أيضاً على من بايعهم الناس على الرياسة والزعامة، فلا فرق بين مسلم ومسيحي في هذا اللقب. غير أن بيت آل رضا تميز بأنه من البيوتات القليلة التي تحمل معنيا اللقب.

نَشَّأَهُ والده على العلم، ثم التحق بالمدارس الدِينية في طرابلس، مدِينة العلم والعلماء، حيث تتلمذ على يد مشايخه: حسين الجسر، ومحمود نشَّابة، وعبد الغني الرافعي. وتأثر من عمه بكتاب إحياء علوم الدِين لحجة الإسلام أبي حامد الغزالي.

وعندما صار عمره ثلاثة وثلاثون عاماً «ضاقت عليَّ المملكة العثمانية بما رحبت، وعزمتُ على الهجرة إلى مصر لما فيها من حرية العمل، واللسان والقلم، ومن مناهل العلم العذبة الموارد، ومن طرق النشر الكثيرة المصادر، وكان أعظم ما أرجوه من الاستفادة في مصر الوقوف على ما استفاده الشيخ محمد عبده من الحكمة والخبرة، وخطة الإصلاح التي استفادها من صحبة السيد جمال الدين، وأن أعمل

معه وبإرشاده في هذا الجو الحر»، فسافرعام 1315هـ الموافق 1898م إلى الأسكندرية، ثم إلى القاهرة حيث «اتصلت بالأستاذ الإمام من أول يوم طلعت عليَّ فيه شمس القاهرة»، وصارحه بأنه ينوي أن يجعل من الصحافة ميداناً لعمله الإصلاحي، ودارت مناقشات طويلة بين الإمامين الجليلين حول الصحافة وأثرها في المجتمع، وأقنع التلميذ شيخه بأن الهدف من إنشائه مجلة المنار هو التربية والتعليم، ونقل الأفكار الصحيحة لمقاومة الجهل والشبهات والخرافات والبدع، فكان لمنار رشيد رضا الأثر الكبير في نهضة الأمة الإسلامية.

توفي محمد رشيد رضا يوم الخميس 23 من جمادى الأولى 1354هـ الموافق 22 من أغسطس – آب 1935م، وكانت آخر عبارة قالها في تفسيره «فنسأله تعالى أن يجعل لنا خير حظ منه بالموت على الإسلام»، وذلك عقب تفسيره دعاء يوسف عليه السلام ﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾.

ونحن إذ نعيد نشر تراث السيد الإمام محمد رشيد رضا، نحرص على الإلتزام بأمانة النص، وحق المؤلف الشرعي في نشر كلامه كاملاً كما كتب وبدون تحريف، بما له وما عليه، أو كما قال الإمام مالك بن أنس «كل أحد يؤخذ من كلامه ويرد عليه إلا صاحب هذا القبر» ويشير إلى قبر النبي ﷺ، خاصةً أن رشيد رضا هو صاحب قاعدة المنار الذهبية «نتعاون على ما نتفق عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما نختلف فيه».

والله نسأل أن يتقبل هذا العمل ويجعله خالصاً لوجهه تعالى إنه هو السميع المجيب.

فؤاد سعيد بن محمد شفيع بن محمد رشيد رضا

محرم 1429هـ

يناير – كانون الثاني 2008م

كتاب الوحي المحمدي

تصدير الطبعة الثالثة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

وله الحمد والشكر، إياه نعبد وإياه نستعين

أما بعد فقد أصدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب في موعد ذكرى مولد النبي ﷺ من ربيع الأول سنة 1352 تيمناً بظهور نوره المُشرق الذي أضاء الكون كله، وإنما أضاءه بزوغ شمس هذا الوحي الإلهي ونزوله عليه، فما أتى على صدوره بضعة أشهر إلا وكانت نسخه قد نفدت. فأعدت طبعه في تلك السنة منقحاً مزيداً فيه قدر الثلث ونيفاً، ولولا خوف الملل على القارئين لزدته ضعفاً أو أضعافاً، ولذلك وعدت بأن أجعل له ثانياً، وأصدرت الطبعة الثانية في يوم عرفة الذي أنزل الله عليه في حجة الوداع ﴿**ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا**﴾ [المائدة:3] تفاؤلاً بتجديد هذا الكتاب لدعوته ﷺ فما جاء يوم عرفة الثاني (سنة 1353) إلا وكانت نسخ الطبعة الثانية قد نفدت، وشرعت في الطبعة الثالثة، وتعمدت تأخير إتمامها كالتي قبلها، لنشرها في موعد الأولى من هذه السنة (1354).

وفي غضون السنة الماضية تمت ترجمة الكتاب باللغة الأوردية ونشرت في الهند وهي مترجمة من الطبعة العربية الأولى. وتمت ترجمته باللغة الصينية فيها أيضاً مرتين. ويتولى طبع الأولى في قبودان مترجمها الأستاذ صاحب مجلة ضياء الهلال وحمل الثانية مترجَمَةً الأستاذ بدر الدين الصيني من الهند إلى مصر وعرضها عليَّ وكان يريد إرسالها إلى بلد آخر في الصين لطبعها فأشرت عليه بأن يزيد فيها كل ما زدته في الطبعة الثانية لأنها أجمع وأنفع، ولعلها لا تطبع إلا وقد نفدت نسخ الترجمة

الأولى، ولعله يعيد تنقيحها بمعارضتها على هذه الطبعة الثالثة فإنها أصح وأكمل. ولم يبلغني أن أحداً غير هؤلاء قد أتم ترجمته بلغة أخرى.

زدت في هذه الطبعة قليلاً من الفوائد، وإيضاحاً لبعض المسائل، وجعلت أكثرها في الحواشي، كما ترى في الحاشية الثانية من ص157، والأولى من ص 158، والحاشية (2) من ص 181، وما جعلته في الصلب أشرت إليه غالباً كشرعية عتق الرقيق من غير المؤمنين، وليس فيها شيء من المقاصد الأصلية المقصودة بذاتها.

علمنا إذن أنه أتى على ظهور الكتاب سنتان كاملتان، فأما انتشاره بالعربية فهو فوق المعتاد في الكتب الدينية، وقد قررت وزارة المعارف العمومية المصرية في هذه السنة صرفه لطلبة دار العلوم العليا وهو يدرس في بعض المدارس الإسلامية في دمشق وبيروت.

ويرجى نشره في السنة المدرسية الجديدة أيضاً بين طلاب الأزهر والمعاهد الدينية بمصر، وقد تولى رياستها شيخ الإسلام وخليفة الأستاذ الإمام (الشيخ محمد مصطفى المراغي) الذي كان أول من قدر الكتاب قدره، وقرأ نصفه في جلسة واحدة وأتمه في جلسة أخرى، ثم كتب في وصفه تلك الكلمة البليغة التي يراها قراؤه في صدر التقاريظ، وقد تنبأ- أو بشَّر- بأنه سيطبع في كل عام.

ترجمة الكتاب باللغات الإفرنجية:

ولكن قَصَّر المسلمون فيما يجب عليهم من ترجمته بسائر لغاتهم وبلغات شعوب الحضارة التي دعوناها به إلى الإسلام، وهي الإنكليزية والفرنسية والألمانية، وهو واجب كفائي صرح بتمنيه كثير من أهل العلم والغيرة، وصرح بوجوبه بعض مقرظي الكتاب، فمنهم من تعسف وطالبني بهذه الترجمة أو بالسعي لها، ومنهم من أنصف وطالب به الأمة الإسلامية أو جمعياتها.

أما الأمة فلا تنهض بالأعمال العامة إلا بزعمائها أو جمعياتها، وأما هذه الجمعيات عندنا فلا تزال في سن الطفولة، ولا يرجى من أمثالها عمل عظيم كهذا، فهي أفقر وأضعف همة من جمعيات المرتدين عن الإسلام جملته وتفصيله كالبهائية،

والملاحدة المدعين للنبوة والمسيحية فيه كالقاديانية، دع جمعيات النصارى التعليمية والتنصيرية، التي تملك مئات الملايين من الجنيهات، وقد بثوا تعاليمهم في جميع أقطار الأرض، وهم يطمعون في تنصير المسلمين، على حين تتسلل شعوبهم من النصرانية سراعاً بسلطان ونظام كالشعب الجرماني، أو لِواذاً بدون سلطان دولي ولا نظام كسائر الشعوب، وهي تمهد السبيل لنسخ الإسلام لها، وحلوله محلها.

ولقد كان أرجى الجمعيات الإسلامية لهذا العمل في مصر جمعية «الدفاع عن الإسلام» التي هدمت باسم أقوى معول من معاول الإسلام قبل أن يتم بناؤها[1]، وإنما كان هذا الرجاء فيها منوطاً برئيسها الشيخ محمد مصطفى المراغي، وما كان السعي لهدمها إلا سعياً لهدم اسمه، وحرمان المسلمين من استعداده، ولكن الله نصره، وخذل من ناهضه. وجعل معول الهدم الذي كان بأيديهم سيفاً لنصر الإسلام بيده، فإذا بعصا موسى تلقف ما يأفك سحرة فرعون ﴿فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [الأعراف]، ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج].

فإن كان أهلاً للرجاء بأن يسعى لترجمة كتاب الوحي المحمدي ببعض لغات العلم الغربية تمهيداً لتبليغ الدعوة الإسلامية للناطقين بها -وتلك القوة الرسمية تكيد له- فأجدر به أن يكون أقدر على تحقيق ذلك بالفعل، وتلك القوة الرسمية وما وراءها من القوة الحقيقية طوع يده، ولن تكون ترجمة هذا الكتاب في موضع الثقة بها عند جميع الشعوب. كما إذا كانت من قِبَل شيخ الإسلام وتحت إشرافه، وكان نشره وبث الدعوة به بإرشاده أو إجازته، مع العلم بأن مؤلفه قلم من أقلامه، وعلم من أعلامه، وأحمد الله عز وجل أن جدد لي وللأمة بعودته إلى مشيخة الأزهر ذلك الأمل بالزعامة الإسلامية العاملة التي فقدناها بوفاة الأستاذ الإمام منذ ثلاثين سنة[2].

(1) راجع «المنار والأزهر» لرشيد رضا. (فؤاد)

(2) ذلك ظن السيد رحمه الله بالشيخ المراغي، وقد تبين لكليهما الحق بعد موتهما.

إن الأمة لم تفقد بوفاة ذلك الإمام شيئاً من علم الإسلام، وإنما فقدت زعيم الإصلاح العارف بحاجة زمانه، والذي نال الزعامة بسمو عقله، واستقلال رأيه وفهمه، وعلو همته وشجاعته، وإنصافه بإعطاء كل ذي حق حقه من العلم الصحيح والإخلاص فيه، وما كان يعوزه للنهوض بالإصلاح العام إلا الاستقلال بالزعامة التي تمكنه من العمل، ولهذا كنا نسعى، ولكل قدر أجل، ولكل أجل كتاب.

إذن لقد كان من حكمة الله أن «كتاب الوحي المحمدي» لم يترجمه بلغات الإفرنج مَنْ ليسوا أهلاً لترجمته حتى لا أضطر إلى تخطئتهم، فيكون ذلك محبطاً لعملهم أو مضعفاً للثقة بترجماتهم، وادخرها العليم الحكيم لمن هو أحق بها وأهلها.

بلوغ الدعوة لأحرار الإفرنج والمستشرقون منهم:

لن يكون بلوغ الدعوة صحيحاً موجزاً إلا بوصولها إلى الأحرار مستقلي الفكر من هذه الشعوب بلغاتهم، وأكثر أفراد المستشرقين الذين تعلموا العربية ليسوا من هؤلاء الأحرار المستقلين المنصفين، فإنهم ما درسوا العربية ولا مارسوا كتب الإسلام ليعرفوا حقيقته ويُعَرِّفوا غيرهم بها، بل ليبحثوا عن عورات يتلمسونها فيها لينفروا أقوامهم عنه بتصويرها لهم بالصور المشوهة التي ينكرونها، كما ترى فيما اطلعنا عليه من كتبهم وفي معجمهم العلمي الذي وسموه بدائرة المعارف الإسلامية، ومن خيبة الآمال بعلمهم ومصنفاتهم أن وجدت كتاب (مفتاح كنوز السُّنة) على غير ما كنت ظننت وخلاف ما قلت في التعريف به فإنني لم أستفد منه أدنى فائدة.

وأما المستقلون منهم وهم الأقلون فقد غلبتهم الأفكار المادية على عقولهم، فقضاياها عندهم مسلمات كأنها لا مجال للبحث فيها وقد قرَّبنا مسافة الخلف بيننا وبينهم بما أقمناه في هذا الكتاب من البينات العلمية القطعية على أن القرآن لا يمكن أن يكون من كلام محمد ﷺ ولا من مدارك عقله الظاهر، ولا ما يسمونه العقل الباطن، فإذا فرضوا أن للإنسان عقلاً باطناً لا تعرف حقيقته يدرك به من علم

الغيب والشهادة ما هو خفي وخارق للعادة في السنن المعروفة لكسب العلم من الحواس والفكر، وعللوا به ما يسمونه قراءة الفكر ومراسلة الأفكار، وإدراك المنوم بالاستهواء المغناطيسي -وقد بينا لهم أنه لا يكفي لتعليل الوحي المحمدي- فأي بُعد بين هذا العقل الخفي المفروض في باطن الإنسان وبين وجود عقل خفي مثله في خارجه (وهو ما نسميه المَلَك كما نسمي الأول الروح) يكون الوحي الحقيقي باتصال أحدهما بالآخر كاتصال الكهربائية الإيجابية بالسلبية، وتولد النور من اتصالهما، فإن ما زعموه من انقداح وحي القرآن من عقل محمد الباطن وحده محال كما قررنا، وهذا أقرب التعليلين والفرق بينهما قريب جداً، فما ثَمَّ إلا اختلاف الأسماء.

وفوق هذا وذاك قيام البراهين الكثيرة على وجود الله الخالق لكل شيء، الذي دون الإيمان به لا يمكن القطع بشيء من مسائل الكون وسننه، فإنهم كلما أثبتوا شيئاً عادوا فنفوه، وكلما أبرموا أمراً نقضوه.

لقد قرب ظهور الحق لأحرار هذه الشعوب وسنراهم بعد ترجمة هذا الكتاب يدخلون إن شاء الله في دين الله أفواجاً، وقد بطلت ثقتهم بكل ما عداه من الأديان.

ولعل «كتاب الوحي المحمدي» قد وصل إلى جميع هؤلاء المستشرقين الذين يعرفون العربية، فإنني أهديته إلى من عرفت عناوينهم وأرسله غيري إلى أناس منهم، ومن عاداتهم أن يبحثوا عن كل كتاب جديد له شأن، وقد شكر لي بعضهم هذه الهدية بكلمة لم يزد عليها كصاحب مفتاح كنوز السنة الدكتور فنسنك. وانفرد العلامة الدكتور موريتس الألماني منهم بإبداء رأي فيه، فأنشر هنا نص كتاب الشكر الذي تفضل به وهو:

برلين 8 سبتمبر سنة 1933

جناب الشيخ العلامة السيد محمد رشيد رضا المحترم

بعد التحية والاحترام فتفضلتم بإرسال إليَّ نسخة كتابكم الجديد «الوحي المحمدي» فالرجا قبول جزيل الشكر على هذه الهدية النادرة القيمة، وبالخصوص

على ما أظهرتم بها من عدم نسيان شخصي، ولا حاجة للتأكيد لكم أني اطلعت عليه بغاية الاهتمام، ولا ريب عندي أنه يجد كمثله في عالم العلماء.

وفي أثناء هذا الاطلاع قد عثرت على جملة مسائل ونقط تستحق ملاحظات لكن نظراً لحجم هذا الجواب الذي لا يتسع أن أدخل في جميعها أقتصر بواحدة منها أي في معنى كلمة نبيء الأصلي «ص21» عند العبرانيين القدماء فكان (نبيئاً) في أوائل عصرهم المتكلم بصوت عالٍ ثم الناطق في أمور أمته القضائية والسياسية أي مثل ناصح ومستشار لإرشادها، لكن شيئاً فشيئاً تتبعاً لتقدم الدين الإسرائيلي تغير موقعه وصفته فصار واعظاً وناصحاً في الأمور الدينية، لأنه كان معتقداً أن هذه الوظيفة صارت له بناء على أمر من الله بذلك، وأنه المتكلم باسم الله، والدليل على ذلك أنه يستعمل في أول كلامه أي نبوته هذه الكلمات: هكذا قال ياهُو (وهو اسم إله بني إسرائيل وغيرهم من الأمم الشرقية المنتشرة بين الحجاز وبين سوريا الشمالية) إلخ .

وفي الختام أكرر لكم الشكر الواجب مع تمنياتي الصميمة. المخلص

دكتور موريتس

يقول هذا العلامة الكبير: إن هذه الهدية نادرة القيمة، وأنه اطلع على الكتاب بغاية الاهتمام، وأنه لا يرتاب في أنه يجد في عالم العلماء ما ينبغي لكتاب مثله، فهؤلاء العلماء قد بلغتهم دعوته، وفهموا ما تحديتهم به من الآية الكبرى على نبوة محمد ﷺ وما نزل عليه من وحي القرآن، ولم يقدر أحد منهم أن ينقضها أو يأتي بتعليل لهذه المعجزة الدالة على إتيان محمد ﷺ بهذا القرآن في أسلوبه ومعانيه وما فيها من العلوم العالية التي لخصتها في المقاصد العشرة، ولتأسيس أقوم دين وأقوى دولة وأمة في عشر سنين قَلَبا أعظم دول الأرض وأديانه في ثلث قرن.

وما ذكره الدكتور من الملاحظة على بعض مدلول لفظ (النبي) عند اليهود فهو منقول من قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوسط، وقد ذكرت المعنى الذي أشار

إليه في كلامه على النبوة من الطبعة الثانية (ص 25) وهو في (41) من هذه الطبعة الثالثة.

ولا أزال أتمنى لو يتفضل عليَّ بغير هذه الملاحظة، وأخص بالذكر ما عساه ينتقده من جوهر الموضوع ولبابه، وإذن أرويه عنه بنص وأبلغه جوابي عنه.

تعادي الأمم والدول وحاجتها إلى الإسلام:

لا تزال دول أوربة وأمريكة وشعوبها على ما وصفتهما به في مقدمة هذا الكتاب من الشقاء والشقاق، والرياء والنفاق، وقد عقدوا في هاتين السنتين مؤتمراً بعد مؤتمر واتفاقاً بعد اتفاق، ولا يزالون كحمار الرحى يدور ولا يبرح مكانه، ليس للحق ولا للصدق عندهم قيمة، فقد ظلوا منذ عقدوا عهد (فرسايل) يجرون فيه مع ألمانية على قاعدة البرنس بسمارك «المعاهدات حجة القوي على الضعيف» حتى إذا اضطروها إلى نقضها سراً كما نقضوها جهراً، وتجديد قوة حربية جوية يرهبونها، أذعنوا لمساواتها لهم في الحقوق والكرامة الدولية كرهاً، وكانوا يمارون فيها ويأبونها طوعاً، بل صاروا يخافونها أن تسطو عليهم، ويجددون المحالفات الدفاعية التي أفضت إلى الحرب العامة السابقة، حتى ذلوا لمحالفة الدولة الشيوعية عدوتهم كلهم، وأنَّى لهم الفرار من حكم كتاب الله في الأمر بالوفاء بالعهود والنهي عن جعلها دخلاً وخداعاً لأجل أن تكون أمة هي أقوى من أمة فتكون المعاهدات أنكاثاً لا مندوحة عن نقضها كما بينا ذلك في محله.

بغوا واستعلوا على ألمانية وهم يعلمون أنها تعلوهم علماً وصناعة ونظاماً، وفرائصهم ترتعد فرقاً من استعدادها السري للحرب، وقد ذاقوا بطشتها القاهرة التي كادت تفتك بهم كلهم من قبل، ولكنهم اتكلوا على خداع معاهدتهم الخاطئة الكاذبة، وعلى تجديد محالفاتهم التي قصدوا بها أن يكونوا إلباً واحداً عليها، وأن تكون في عزلة لا تجد فيها ولياً ولا نصيراً.

صاح زعيمها المجدد (هتلر) صيحة بنقض تلك المعاهدة، وتجديد السلاح الجوي والبحري والتعبئة، فراعتهم كزئير الأسد يُجفل الغنم، وقالوا إن سِلم أوربة

وحربها رهن يديه، وعمرانها وخرابها بين شفتيه، وظلوا يصيخون السمع لما سيقوله في خطابه السياسي العام، حتى إذا ما ألقاه كان حجة بالغة له دامغة لخصومه، وصادعة لآخر حصن لدول الاتحاد الثلاثي في وجهه (اتفاق ستريزا) فعادت إنكلترة تفاوض ألمانية في قواتها الجوية والبحرية وكانت تستكبر عن هذا، وكشرت عن أنيابها لإيطالية فيما تحشره من جيوش وذخائر للعدوان على دولة الحبشة المعتصمة معهم بعهد عصبة الأمم، الذي هو في نظرها كسائر العهود الأوربية حجة القوي على الضعيف، وقد رأوا كيف رفضته بل رفسته كل من اليابان وألمانية برجلها، ولكن البلية كل البلية في تعارض مطامع الأقوياء، فزعيم إيطالية مغتر بقوتها جامح لفتح الحبشة أو نقصها من أطرافها، وإنكلترة أعز منها وأقوى، وإن هذا الصدع في اتحاد هؤلاء الأحلاف لا يلتئم، فهذا الزعيم المعتز بسلطانه الشخصي يرى خيبته بعد الشروع في وسائل الزحف قضاء على نفوذه، وأمته في اضطراب لا ينقذها منه إلا فوزه فيه، وألمانية لابد لها من استعادة جميع مستعمراتها، وهي أقدر على إخضاع إنكلترة في الهواء والماء. وماذا تفعل فرنسا إذا تركته إنكلترة؟

وجملة القول: أن هذه الدول وشعوبها لا تزال ولن تزال على ما وصفناها به في مقدمة الطبعة الأولى للكتاب من فساد لا علاج له إلا هداية الإسلام، دين الأخوة الإسلامية والعدل والرحمة والسلام، فيجب المبادرة إلى تبليغ دعوته، وإقامة حجته، وهو قد أعد عقلاء المسلمين لتعميم هذه الدعوة عندما ينهض زعيم مسلم لكفالتها وتوحيد النظام لها، ويرى قارئه الشواهد على هذا فيما نشرناه من التقاريظ في آخره وفي مقدمتها قول شيخ الإسلام المراغي لمؤلفه «إنكم وفقتم لفتح جديد في الدعوة إلى الدين الإسلامي» إلخ وسائرها مؤيد لقوله، يدل على استعداد في الأمة لتنفيذه.

استعداد المسلمين لدعاية الإسلام:

ذكرت في آراء شيخنا الأستاذ الإمام من تاريخه (ص 939 ج 1) أن أمم الحضارة في الغرب سيذوقون من فتن مدنيتهم ومفاسدها السياسية ما يضطرهم إلى طلب المخرج منها فلا يجدونه إلا في الإسلام -إسلام القرآن والسنة لا إسلام المتكلمين والفقهاء- وأنه صرح بهذا مراراً في دروسه في الأزهر وفي غيره.

وأقول الآن: لكنه ما سمع لقوله هذا صدىً، ولا وجد على نار المسلمين هدىً، فكان يرجح أن هداية القرآن ستظهر في غيرهم من الشعوب الحية، وأن هؤلاء المسلمين الجغرافيين سيطلبون إسلام القرآن والسنة منهم تقليداً لهم كما يقلدونهم في الزينة والإباحة والإسراف في الشهوات الذي أفسدهم جميعاً.

وسمعت مثل هذا الرأي من الأستاذ المراغي وغيره من الأفراد، ولعلي أوسع علماً واختباراً لمسلمي الأقطار من كل هؤلاء وأجدر منهم بسوء الظن فيهم، ولكن ظهر لي بتقبل عقلائهم لكتاب «الوحي المحمدي» بما تقبلوه به من إيمان وشهادة ورجاء وثناء ودعاء، أن استعدادهم لهداية القرآن والدعاية له قد دخل في طور جديد.

ألم تر كيف تجاوبت أصوات المقرظين له في مصر وسورية والعراق وغيرها من الأقطار بقول القائلين: إنهم كانوا يفكرون ويتمنون ويتساءلون قبله عن كتاب يصلح للدعوة إلى الإسلام فلا يجدون، حتى إذا رأوه وجدوه الضالة التي ينشدون؟ أو لم تر كيف شاركهم فيها أئمة المسلمين وملوكهم المتقون؟

فعُلم من هذا أن المسلمين لا يمكن أن تعود إليهم الحياة إلا بمثل ما بدأت به سلفهم من روح القرآن وهدي الرسول ﷺ كما قال الإمام مالك «لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»، وما ذلك إلا أن يكونوا على علم بالقرآن يوقنون به أنه مصلح لجميع البشر، وأن حملته يجب أن يكونوا أئمة البشر وهداتهم، والمصلحين لما أفسدته المدنية المادية من عقائدهم وأخلاقهم، فإن لم يملكهم هذا اليقين فلا رجاء في دينهم ولا دنياهم، ولكن نشر هذا اليقين فيهم يتوقف على نظام، وزعامة يثق بها الخاص والعام، وسيرون الدعوة له تُبث في هذا العام، وسنرى قدر استعدادهم لتأييدها بأموالهم وأنفسهم فيَسُرُّنا إن شاء الله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾ [الحُجُرات].

محمد رشيد رضا منشيء مجلة المنار

كتاب الوحي المحمدي
تصدير الطبعة الثانية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

نحمد الله جل ثناؤه أن جعل قبول هذا الكتاب وتأثيره فوق ما كنا نقدر ونحتسب، على ما نظن من دقة اختبارنا للعالم الإسلامي، فإنه لم يكن إلا خلاصة عامة من تفسير المنار للقرآن الحكيم، وأكثر المسلمين قد هجروا القرآن هجراً غير جميل، إذ باتوا يجهلون أن فيه كل ما يحتاجون إليه من حياة روحية وأدبية وقوة سياسية وحربية، وثروة وحضارة ونعمة معيشية، بَلْهَ ما يلزم ذلك من الفوائد السلبية، كدفع طغيان الأجانب عليهم، وصد عدوانهم عن بلادهم، وإنقاذهم من استذلالهم لشعوبهم.

في القرآن كل ما ذكرت وما هو أكثر منه وأكبر، ولا يطلبونه منه، ومنهم من يطلبه من غيره – حتى الحياة الروحية يعتقدون أنه هو ينبوعها الأعظم، ويوجد فيهم من يطلبها من غيره (كالأوراد والأحزاب) بناء على أنها مستمدة منه، ويقل فيهم من يزيد عليها تلاوة ألفاظه، وإنما يتلوها تاليها منهم ومن غيرهم لأن لقارئها هي كل حرف منها عشر حسنات، لا للتدبر والادكار الذي أنزل لأجله القرآن ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص] ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا۟ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُم مَّا لَمْ يَأْتِ ءَابَآءَهُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [المؤمنون] ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد].

إن أكثر المسلمين يجهلون أن للقرآن تأثيراً صالحاً ما في حياتهم المعاشية والمدنية والسياسية، وهي أكبر همومهم ولا مرشد لهم فيها، ويجهلون البرهان العقلي المقترن بالشعور الوجداني، على أنه وحي الله لنبيه ورسوله، وأن في اتباعه سعادتهم في

دينهم ودنياهم، ولا يجدون أحداً من الذين يتولون تربيتهم وتعليمهم في بيوتهم ولا في مدارسهم يقنعهم به، ويربي فيهم ملكة الوازع النفسي لاتباعه، لا يعرفون كتاباً من كتب عقائدهم أو تفاسيره يهديهم إلى هذا، والمجهول المطلق لا تتوجه إليه النفس، فلا عجب إذا هجروا القرآن وأعرضوا عن تدبره.

إن تفسير المنار قد أُلِّفَ لاستدراك هذا التقصير في كتب التفسير، ولكنه لا يدرس في المدارس[1]، ولا يعتمد عليه في التربية، ولا يخطر في بال من لم يقرأه أنه يجد فيه بيان كل ما تحتاج إليه الأمة لتجديد حياتها ومجدها، ولا لدفع الغوائل عنها، ويوشك أن يكون أكثر من اطلعوا عليه لا ينوون بقراءته ما ألف لأجله من الإصلاح والهدى، وتجديد ثورته الأولى «وإنما لكل امرئ ما نوى».

كل ما يحتاج إليه المسلمون من إصلاح وتجديد حضارة وملك متوقف فيهم على هداية القرآن وتنفيذ النبي ﷺ وخلفائه الراشدين رضي الله عنهم له، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها، كما قال الإمام مالك رحمه الله، وكيف السبيل إلى إقناعهم بذلك ونحن ندعوهم إلى هذا منذ ثلث قرن؟ وقَلَّ منهم من سمع فاستجاب واستغفر ربه وخرَّ راكعاً وأناب، حتى أهابت بهم صيحة هذا الكتاب باسم «الوحي المحمدي» وإعجاز القرآن للبشر بما تقتضيه حضارة هذا العصر وعلومه ومشكلاته السياسة والقومية، وتحدي علماء الإفرنج بعلومه وإصلاحه، ودعوتهم إلى الإسلام به، لإنقاذ العالم المدني من أخطاره، وانتياشهم من تياره، فكانت أول صيحة صخت الأسماع، فأصغت الآذان، وأشخصت الأبصار، وأهطعت الأعناق، بالقرآن للقرآن، فبادر أهل الغيرة إلى ترجمته بما اختلف من اللغات وبث دعوته في الأقطار، فأسر ما سرني من تأثيره، إنما هو توجيه القلوب إلى هداية القرآن، وروح القرآن، وإن اشترك فيه العربي والعجمي، والسني والشيعي والإباضي، ولا غرو فالقرآن فوق المذاهب والأجناس والأوطان، ومن آياته المحكمات ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل

(1) ولكن بعض المدرسين في الأزهر وغيره يقتبسون منه مادة لدروسهم.

عمران:105] ومن خطابه للرسول ﷺ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾[الأنعام:159].

وإنما مزية هذا الكتاب أنه بيَّن إعجاز القرآن للبشر بالدلائل العلمية العصرية التي يفهمها كل قاريء، وأبرز لهم خلاصة إصلاحه للبشر مفصلة في عشرة مقاصد مؤيدة بالشواهد، وذكَّرهم بما كان من إحداثه أعظم ثورة عالمية وانقلاب ديني مدني في الأرض، وعرض على أبصارهم ما لا مراء فيه من فساد حال شعوب الحضارة الغربية، وعجز علومهم وفنونهم عن تلافي شرها، وتدارك خطرها، بعبارة مختصرة، تعلوها عناوين كبيرة أو صغيرة، تشير إلى ما تحتها من كنوز، وما وراءها من ركاز إسلامي مركوز، فلا تتعب القارئ الكسول، ولا تنفر السامع الملول.

من الدلائل على تقبل جميع المسلمين له بقبول حسن ما أثبتناه في التقاريظ الملحقة بهذه الطبعة، من كتب أئمة الفرق الثلاث الكبرى التي تضم الملايين من أهل القبلة، وما يرجى من مساعدتهم لنا على تعميم نشره. فأما إمام أهل السنة فإنه أبدى لنا عزمه على ذلك وكانت نسخ الطبعة الأولى قد نفذت[1]، وأما إمام العترة والشيعة الزيدية[2] فإنه عندما رآه كتب إلينا يستأذننا بطبعه في اليمن لتعميم نشره فيه، فكتبنا إليه بأننا سنعيد طبعه منقحاً مزيداً فيه، فكتب ثانياً ما يراه القراء في أول التقاريظ.

وقد كان بادر إلى المساعدة على نشره من أول وهلة صاحب السعادة السَريِّ، عزيز عزت باشا المصري فتبرع بثلاثين جنيهاً وزعنا بها نسخاً كثيرة في أوربة وغيرها، وتبرع صاحب السعادة محمد صادق المجددي وزير الأفغان المفوض في مصر بمائة نسخة منه للمؤتمر الإسلامي في القدس ليوزعها رئيسه على فروعه في

(1) قد تفضل بأخذ مئات من نسخ الطبعة الثانية ولم يقف بره عندها. (خادم الحرمين الشريفين جلالة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، ملك المملكة العربية السعودية) (فؤاد)

(2) الإمام يحيى بن حميد الدين ملك اليمن. (فؤاد)

الأقطار، وتبرع آخرون بعشرات من النسخ على من يظنون انتفاعهم بالكتاب دع من انتدبوا للترغيب فيه، وبيعه لمن يشتريه، احتساباً لوجه الله عز وجل[1].

وأما التقاريظ فقد نشرنا طائفة مما حفظناه منها لبيان آراء المسلمين في الكتاب من الطبقات المختلفة، وأحسنهم رأياً مَن بيَّن أنه فيض من عين معين القرآن، اشتدت حاجة الناس إليه في هذا الزمان، وأنه جمع فأوعى أصول عقائده وخلاصة حكمه وأحكامه مع حججها، بأسلس عبارة وأوضحها، وأنه خير ما يدعى به إلى الإسلام، وما يدحض شبهات المعطلين الماديين، والملاحدة المتفرنجين، وما يفند تضليل دعاة التنصير، ويفضح ما يلبسون من شفوف الرياء والتزوير، وما يلبسون على غيرهم من إفك وتغرير. فقد أقيمت عليهم الحجة في هذا الكتاب بأنه لا يمكن إثبات أصل دينهم، ولا معجزات نبيهم (لا ربهم) إلا بثبوت هذا القرآن وأنه وحي من الرحمن.

وأما الذين استأذنونا بترجمته باللغات المختلفة فقد أذنا لهم كلهم لأول وهلة ولم نلبث أن علمنا أن أحد مترجميه باللغة (الأوردية الهندية) قد أتم عمله وهو تلميذنا الشيخ عبد الرزاق المليح آبادي مؤسس جريدة (هند الجديد) في كلكتة، وهو ينتظر صدور الطبعة الثانية ليدخل في ترجمته ما يجده من تنقيح وزيادة. وإن مترجماً آخر بها ينشر ترجمته في بعض الصحف تعجيلاً للفائدة.

وكذلك يترجمه آخران باللغة الصينية: (أحدهما) الشيخ بدر الدين الصيني المدرس في دار العلوم الندوية في لكهنؤ (الهند) وصاحب المقالات المشهورة في الصحف العربية. (وثانيهما) صاحب مجلة ضياء الهلال، وهو يُدَرِّس تفسير المنار في بلده (قبودان) وقد كتب إلينا يسألنا عن كَلِمٍ في الكتابين، وسنرسل إلى كل منهما هذه الطبعة الجديدة ليعتمدا عليها.

---

(1) وقد وزع صاحب السعادة هارون باشا سليم أبو سحلي خمسمائة نسخة على وجهاء المنوفية، إذ كان مديراً لها بإرشاده لهم وأودعه في جميع مدارس المديرية، وتبرع صديق العرب والإسلام مستر كراين الأميركي بثمن مئات من النسخ توزع على خزائن الكتب العامة، والأندية العلمية والأدبية. (اهـ من الطبعة الثالثة).

وقد استأنيت من يريد ترجمته بالفارسية، لأجل وزارة المعارف الأفغانية، ولا أدري ما فعل من أذنت له بالترجمة التركية، ولا مدير المجلة الإسلامية في لندن (رفيواسلاميك) وقد أذنت له بترجمته باللغة الإنكليزية ونشره بها، بيد أنني سأرسل إليهم هذه الطبعة الثانية وأدع لهم الخيار في إيثارها على الأولى أو الاكتفاء بها[1].

إن الزيادات الكبيرة التي كنت وعدت بجعلها علاوات للطبعة الأولى ملحقة بالكتاب، اخترت في الطبعة الثانية أن أجعلها في جزء مستقل، وقد ختمت الكتاب بدونها، فهو قائم بنفسه، مستغن في إثبات الوحي المحمدي وإثبات النبوة به، والتحدي بما جاء فيه، وبناء الدعوة إلى الإسلام عليه، وإنما تكون تلك الملحقات تعزيزاً له.

وهذا بيان لما أشرت ووعدت به منها، مع زيادة يجوز أن يتبعها غيرها.

علاوات كتاب الوحي:

(1) أنباء الغيب في القرآن، وعلى لسان النبي ﷺ، مما ظهر صدقه في عصره ﷺ ومن بعده، ولا يزال يظهر منها ما يدل على صدقه، حتى يأتي أمر الله عز وجل.

(2) سنن الله في الخلق ونظام القضاء والقدر، وقد أتينا في هذه الطبعة بالأصل فيها.

(3) سنن الله تعالى في نظام الاجتماع، وقد ألممنا بها بعض الإلمام.

(4) المسائل العلمية والفلكية التي كانت مجهولة في عصر التنزيل وعرفت بعده بقرون، وقد نَوَّهنا بها مراراً أوضحها في خاتمة الكتاب.

(5) الأمور الصحية التي كانت مجهولة في جملتها أو تفصيلها وكشفها الطب.

(6) أسرار العبادات وحِكَم التشريع التي لا يُعرف قدرها إلا بالنبوغ في علوم كثيرة، منها علم النفس وعلم الحياة وعلم الأخلاق وعلم الطب وعلم الاجتماع.

(7) خلاصة مجملة من سيرته ﷺ وأخلاقه وآدابه وشمائله، الدالة على نبوته.

---

(1) ذكرت في تصدير هذه الطبعة الثالثة ما وصل إليه علمي ورأيي في هذة المسألة.

(8) خلاصة من سيرة الخلفاء الراشدين، وأمراء الصحابة وقوادهم الفاتحين، وهدي السلف الصالحين، المجلية لإصلاح الدين وتفضيله على غيره.

(9) الدلائل الثمانية التي حذفتها من خاتمة الطبعة الأولى المؤكدة لكون القرآن من عند الله تعالى مع زيادة عليها.

(10) الكلام في هذيان من عارض القرآن من المتأخرين الذين ادعوا النبوة والألوهية كالباب والبهاء الإيرانيين، وميرزا غلام أحمد القادياني الهندي، وإيراد الشواهد من وحيهم الشيطاني الذي يضحك الثكلى.

(11) شواهد من كلام كبار علماء الإفرنج وكتابهم في مزايا الإسلام التي فضل بها جميع الأديان بنبيه المرسل وكتابه المنزل.

(12) الشبهات الكبرى للماديين ولخصوم الإسلام من الملليين ودحضها بالبراهين.

لولا أن أكثر الناس يفهمون من التفصيل بالإسهاب، ما لا يفهمون من الإجمال في الإيجاز، لاكتفوا منا في إثبات الوحي المحمدي بما ذكرناه من المطالب الأربع الأولى، إذ الغرض من ذكرها الدلالة على أنها مما يعلو علم محمد ﷺ الكسبي، واستعداده العقلي، ويستحيل أن تكون من وحي إلهامه النفسي، ولكنهم طالبونا بها، وصرَّح بعضهم بأننا أغفلناها.

ولولا أن هذا الكتاب وضع في قالب الاختصار لفصَّلنا فيه هذه المطالب، ونظمناه في سلك ما سميناه المقاصد، ولمددنا تلك المقاصد مداً، وأكثرناها عداً، فجعلنا الأول منها ثلاثاً، والخامس بعدد جمله عشراً.

وحينئذ يمكن بسط علوم القرآن الدالة على أنه من عند الله في عدة أسفار، كما صرَّحنا بذلك. (انتهى التصدير الثاني باختصار).

مقدمة الطبعة الأولى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [آل عمران].

ارتقاء البشر المادي، وهبوطهم الأدبي، وحاجتهم إلى الدين

إن من المعلوم اليقيني الثابت بالحواس أن علوم الكون المادية تَثِبُ في هذا العصر وُثُوباً يشبه الطفور، وتؤتي من الثمار اليانعة بتسخير قوى الطبيعة للإنسان ما صارت به الدنيا كلها كأنها مدينة واحدة، وكأن أقطارها بيوت لهذه المدينة، وكأن شعوبها عشائر وفصائل لأمة واحدة في هذه البيوت (الأقطار) يمكنهم أن يعيشوا فيها إخواناً متعاونين، سعداء متحابين، لو اهتدوا بالدين.

وإن من المعلوم اليقيني أيضاً أن البشر يرجعون القهقرى في الآداب والفضائل على نسبة عكسية مُطَّرِدَة لارتقائهم في العلوم المادية واستمتاعهم بثمراتها، فهم يزدادون إسرافاً في الرذائل، وجرأة على اقتراف الجرائم، وافتناناً في الشهوات البهيمية، ونقض ميثاق الزوجية، وقطيعة وشائج الإسلام، وعقوق الوالدين، ونبذ هداية الأديان، حتى كادوا يفضلون الإباحة المطلقة على كل ما يقيد الشهوات من دين وأدب وعرف وعقل، بل رجع بعضهم إلى عيشة العري في أرقى ممالك أوربة وأمريكة علماً وحضارة، كما يعيش بعض بقايا الهَمَج السُّذَّج في غابات أفريقية وبعض جزائر البحار النائية عن العمران.

وإن من المعلوم اليقيني أيضاً أن الدول الكبرى لشعوب هذه الحضارة أشد جناية عليهم وعلى الإنسانية من جنايتهم على أنفسهم - بإغرائها أضغان التنافس بينهم، وباستعمالها جميع ثمرات العلوم ومنافع الفنون في الاستعداد للحرب العامة التي تدمر في أشهر أو أيام معدودة صروح العمران التي شيدتها العصور الكثيرة وتُفني الملايين فيها من غير المحاربين، كالنساء والأطفال والشيوخ، وبصرفها معظم ثروات شعوبها في هذا السبيل، وفي سبيل ظلمها للشعوب الضعيفة التي ابتليت بسلطانها، وسلبها لثروتهم وحريتهم في دينهم ودنياهم. فالعالم البشري كله في شقاء من سياسة هذه الدول الباغية الخبيثة الطوية، وكل ما عُقد من المؤتمرات لدرء أخطارها لم يزد نارها إلا استعاراً. ولو حسنت نياتها، وأنفقت هذه الملايين التي يسلبها من مكاسب شعوبها وغيرهم في سبيل الإصلاح الإنساني العام لبلغ البشر بها أعلى درجات الثراء والرخاء.

كل ما ذكر معلوم باليقين، فهو حق واقع ما له من دافع.

وإن من المعلوم من استقراء تاريخ هذه الحضارة المادية أن هذه الشرور كانت لازمة لها ونمت بنمائها، فكان هذا برهاناً على أن العلوم والفنون البشرية المحض غير كافية لجعل البشر سعداء في حياتهم الدنيا، فضلاً عن سعادتهم في الحياة الآخرة، وإنما تتم السعادتان لهم بهداية الدين، فالإنسان مدني بالطبع، ومتدين بالطبع، أو بالفطرة كما يقول الإسلام.

من أجل ذلك فكر بعض عقلاء أوربة وغيرهم في اللجوء إلى هداية الدين، وأنه هو العلاج لأدواء هذه الحضارة المادية والترياق لسمومها، وتمنوا لو يُبعث في الغرب أو في الشرق نبي جديد بدين جديد يصلح الله بهدايته فسادها، ويقوِّمُ بها منآدها، لأن الأديان المعروفة لهم لا تصلح لهذا العصر وقد فسد حال جميع أهلها[1]، وكان من يسمونه دين المحبة مِصْداقاً لقول الله تعالى ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾[المائدة:14].

(1) أول من نقل لنا هذا الرأي جريدة السياسة منذ سنين ثم تكرر نقله.

بيد أن هؤلاء المفكرين لا يعرفون حقيقة دين القرآن، وهو الدين الإلهي العام، والمانع لهم من معرفته ثلاثة حُجُب تحول دون النظر الصحيح فيه، وعدم فهمهم للقرآن كما يجب أن يُفْهَم. فأما الحجب دونه فهذا بيانها بالإيجاز:

الحُجب بين الإفرنج وحقيقة الإسلام

(الحجاب الأول) الكنيسة أو الكنائس التي عادته منذ بلغتها دعوته، وطفقت تصوره بصور مشوهة باطلة، بدعاية عامة، فيها من افتراء الكذب وأقوال الزور والبهتان، ما لم يُعهد مثله في أهل ملة من البشر في زمن من الأزمان، وألَّفَت في ذلك من الكتب والرسائل، والأغاني والأناشيد والقصائد، ما يعرف بطلانه كل مؤرخ مطلع على الحقائق. ثم إنها جعلت تشويهه ووجوب معاداته ركناً من أركان التربية والتعليم في جميع مدارسها، والمدارس التي يتولى خريجوها تعليم الناس فيها، فما من أحد يتعلم فيها من أتباعها إلا وهو يعتقد أن جميع المسلمين أعداء للمسيح والمسيحيين كافة، فيجب عليه عدواتهم ما استطاع. والحق الواقع أن الإسلام هو صديق المسيحية المتمم لهدايتها، وأن محمداً ﷺ هو الفارقليط روح الحق الذي بَشَّر به المسيح عليه السلام[1].

(الحجاب الثاني) رجال السياسة الأوربية، فإنهم ورثوا عداوة الإسلام من الكنيسة، وتلقوا مفترياتها في الطعن عليه بالقبول، وضاعف هذه العداوة له والضراوة بحربه، طمعهم في استعباد شعوبه واستعمار ممالكهم.

وإذا كان رجال الدين قد ملئوا الدنيا كذباً وافتراء على الإسلام -ومن أسس الدين الصدق وقول الحق والحب والرحمة والعدل والإيثار- فأي شيء يكثر فعله على رجال السياسة وأساس بنائها الكذب، وأقوى أركانها الجور والظلم والعدوان، والقسوة والأثرة والخداع، وهو ما نراه بأعيننا ونسمع أخباره بآذاننا كل يوم في المستعمرات الأوربية؟ بل نحن نعلم أن سبب افتراء رجال الدين على الإسلام هو السياسة لا الدين نفسه، وإن قاعدتهم المشهورة «الغاية تبرر الواسطة»

(1) راجع آخر الفصل 15 وأوائل (16 : 12 – 14) من إنجيل يوحنا.

سياسية لا إنجيلية، فما كان لدين أن يبيح الجرائم والرذائل باتخاذها وسيلة لمنفعة أهله وإن دينية.

(الحجاب الثالث) سوء حال المسلمين في هذه القرون الأخيرة، فقد فسدت حكوماتهم وشعوبهم، واستحوذ عليهم الجهل بحقيقة دينهم ومصالح دنياهم، حتى صاروا حجة لأعدائهم فيهما، على أنه لا خير فيهم ولا في دينهم، وأمكن هؤلاء الأعداء أن يفتنوا بهذه الحجة الداحضة أكثر من يتخرج من مدارسهم السياسية الإلحادية، والدينية التنصيرية، من أبناء ملتهم أو جلدتهم ومن غيرهم، حتى نابتة المسلمين أنفسهم أيضاً، وهم يختارون من هذه النابتة الأفراد التي تتولى أعمال الحكومة والتعليم في مدارسها في كل قطر خاضع لنفوذ دولهم الفعلي، بأي اسم من أسمائه من فتح وامتلاك وحماية واحتلال وانتداب، أو لنفوذهم السياسي والتعليمي كما فعلوا في بلاد الترك و إيران، لتساعدهم على هدم كل شيء إسلامي فيها من اعتقاد وأدب وتشريع.

وقد كان السيد جمال الدين الأفغاني حكيم الإسلام وموقظ الشرق يرى أن هذا الحجاب أكثف الحُجُب الحائلة بين شعوب أوربة الحرة والإسلام، ونقل لي الثقة عنه أنه قال: إذا أردنا أن ندعو أحرار أوربة إلى ديننا فيجب علينا أن نقنعهم أولاً أننا لسنا مسلمين، فإنهم ينظرون إلينا من خلال القرآن هكذا -ورفع كفيه وفرَّج بين أصابعهما- فيرون وراءه أقواماً فشا فيهم الجهل والتخاذل والتواكل، فيقولون لو كان هذا الكتاب حقاً مصلحاً لما كان أتباعه كما نرى.

لا ننكر أن بعض أحرار الإفرنج قد عرفوا من تاريخ الإسلام ما لم يعرفه أكثر المسلمين، فأنصفوه فيما كتبوا عنه من تواريخ خاصة، ومن مباحث عامة في العلم والحضارة والدين، وأن منهم من اهتدى به عن بصيرة وبينة، ولكن ما كتبه هؤلاء كلهم لم يكن مُبَيِّناً لحقيقته كلها، ولم يطلع عليه إلا القليل من شعوبهم، وكان جُلّ تأثيره في أنفس من اطلعوا عليه أن بعض الناس أخطئوا في بيان تاريخ المسلمين

فانتقد عليهم آخرون، فهو لم يهتك الحجب الثلاثة المضروبة بينهم وبين حقيقة الإسلام.

وأما عدم فهمهم القرآن كما يجب -وأعني به الفهم الذي تعرف به حقيقة إعجازه وتشريعه وأدبه وإصلاحه، وكونه هو دين الله الأخير الكامل الذي لا يحتاج البشر معه إلى كتاب آخر ولا إلى نبي آخر- فلعله أربعة أسباب خاصة، وراء تلك الحجب العامة،وهي:

الأسباب العائقة عن فهم الأجانب للقرآن

جهل بلاغة القرآن:

(أولها) جهل بلاغة اللغة العربية التي بلغ القرآن فيها ذروة الإعجاز في أسلوبه ونظمه وتأثيره في أنفس المؤمنين والكافرين به جميعاً، فأحدث بذلك ما أحدث من الثورة الفكرية والاجتماعية في العرب، والانقلاب العام في البشر، كما شرحناه في هذا الكتاب. وقد كان من إكبار الناس لهذه البلاغة أن جعلها أكثر علماء المسلمين موضوع تحدي البشر بالقرآن دون غيرها من وجوه إعجازه، وجعلوا عجز العرب الخُلَّص عن معارضته بها، ثم عجز المولَّدين الذين جمعوا بين ملكة العربية العملية وملكة فلسفتها من فنون النحو والبيان، هو الحجة الكبرى على نبوة محمد ﷺ، وقد فقد العرب الملكتين منذ قرون كثيرة إلا أفراداً متفرقين منهم - فما القول في غيرهم؟ فعلماء المسلمين في هذه القرون يحتجون بعجز أولئك ولا يَدَّعون أنهم يدركون سر هذا الإعجاز أو يذوقون طعمه، بل قال بعض علماء النظر المتقدمين منهم: إن الإعجاز واقع غير معقول السبب، فما هو إلا أن الله تعالى صرف الناس عن معارضته بقدرته، والصواب أن منهم من حاول المعارضة فعجزوا إذ ظنوا أن إعجازه بفواصل الآيات التي تشبه السجع فقلدوها فافتضحوا. ومن متأخري هؤلاء من ادعى النبوة كمسيح الهند القادياني الدجال، ومن ادعى الألوهية (كالبهاء) وقد أخفى أتباع هذا كتابه الملقب بالأقدس لئلا يفتضحوا به بين الناس، وأضعف منه وأسخف بيان أستاذه الباب.

قصور ترجمات القرآن وضعفها:

(ثانيها) أن ترجمات القرآن التي يعتمد عليها علماء الإفرنج في فهم القرآن كلها قاصرة عن أداء معانيه التي تؤديها عباراته العليا وأسلوبه المعجز للبشر، و هي إنما تؤدي بعض ما يفهمه المترجم له منهم، إن كان يزيد بيان ما يفهمه، وإنه لمن الثابت عندنا أن بعضهم تعمدوا تحريف كَلِمِه عن مواضعه، على أنه قلما يكون فهمه تاماً صحيحاً، ويكثر هذا فيمن لم يكن به مؤمناً، بل يجتمع لكل منهم القصوران كلاهما: قصور فهمه، وقصور لغته. وقد اعترف لي ولغيري بهذا مستر (محمد) مارما ديوك بكتل الذي ترجمه بالإنكليزية وجاء مصر منذ 3 سنوات فعرض على بعض علماء العربية، المتقنين للغة الإنكليزية، ما رأى أنه عجز عن أداء معناه منه، وصحح بمساعدتهم ما ذاكرهم فيه[1].

واعترف بذلك الدكتور مادريش المستشرق الفرنسي الذي كلفته وزارتا الخارجية والمعارف الفرنسية لدولته ترجمة 62 سورة من السور الطوال والمئين والمفصل التي لا تكرار فيها ففعل، وقد قال في مقدمة ترجمته التي صدرت سنة 1926 ما معناه بالعربية:

«أما أسلوب القرآن فإنه أسلوب الخالق جل وعلا، فإن الأسلوب الذي ينطوي على كُنْه الكائن الذي صدر عنه هذا الأسلوب لا يكون إلا إلهياً. والحق الواقع أن أكثر الكُتَّاب ارتياباً وشكاً قد خضعوا لسلطان تأثيره (في الأصل: لتأثير سحره - يعني تأثيره الذي يشبه السحر في كونه لا يعرف له سبب عادي) وأن سلطانه على الثلاثمائة الملايين من المسلمين المنتشرين على سطح المعمور لبالغ الحد الذي جعل أجانب «المبشرين» يعترفون بالإجماع بعدم إمكان إثبات حادثة واحدة محققة ارتد فيها أحد المسلمين عن دينه إلى الآن[2].

(1) ولا يزال تصحيح ترجمته ناقصاً، وبلغني أنه سيصححها مرة أخرى.

(2) ما يُسمع من تنصر بعض المسلمين ما هو إلا إكراه لبعض العوام الجاهلين، أو استمالة لبعض الفقراء منهم بالمال، أو تربية لبعض الأطفال.

«ذلك أن هذا الأسلوب الذي طرق في أول عهده آذان البدو[1] كان نثراً جِدَّ طريف، يفيض جزالة في اتساق نسق، متجانساً مسجعاً لفعله أثر عميق في نفس كل سامع يفقه العربية. لذلك كان من الجهد الضائع غير المثمر أن يحاول الإنسان أداء تأثير هذا النثر البديع «الذي لم يُسمع بمثله» بلغة أخرى، وخاصة اللغة الفرنسية الضيقة «التي لا سعة فيها للتعبير عن الشعور» المَرِثَة[2] «التي لا تتنازل عن حقوقها» والقاسية. وزد على ذلك أن اللغة الفرنسية، ومثلها جميع اللغات العصرية ليست لغة دينية، وما استعملت قط للتعبير عن الألوهية» اهـ.

ثم تكلم عن عنايته هو مدة تسع سنوات متواليات بمحاولة نقل شيء من القرآن إلى اللغة الفرنسية على شرط المحافظة على بلاغة الأصل، وتساءل هل أمكنه التغلب على هذه الصعوبة أم لا؟ يعني أنه يشك في ذلك.

أسلوب القرآن المخالف لجميع أساليب الكلام:

(ثالثها) أن أسلوب القرآن الغريب المخالف لجميع أساليب الكلام العربي وغيره وطريقته في مزج العقائد والمواعظ والحِكَم والأحكام والآداب، بعضها ببعض في الآيات المتفرقة في السور –وهو ما بينا سببه وحكمته في هذا الكتاب– قد كان حائلاً دون جمع كبار علماء المسلمين من المفسرين وغيرهم لكل نوع من أنواع علومه ومقاصده في باب خاص به، كما فعلوا في آيات الأحكام العملية من العبادات والمعاملات، دون القواعد والأصول الاجتماعية والسياسية والمالية التي يرى القاريء نموذجها في هذا الكتاب، إذ لم يكونوا يشعرون بالحاجة إليها كما نشعر في هذا العصر.

وقد عُني بعض الإفرنج[3] بوضع كتاب باللغة الفرنسية جمع فيه آيات القرآن بحسب معانيها، ووضع كل منها في باب أو أبواب خاصة بقدر فهمه، ولكنه أخطأ

(1) يعني العرب الذين كانت تغلب عليهم البداوة حتى في حواضرهم كمكة و يثرب.
(2) مؤنث المرث – كتعب: الصبور على الخصام، الذي لا يتنازل عن حقه.
(3) هو المستشرق العلامة المسيو جول لا بوم.

في كثير من هذه المعاني وقصَّر في بعض مما علمه، وما جهله منها عظيم، ذلك بأن أخذ القواعد والأصول العامة[1] من هذه الآيات يتوقف على العلم بسيرة النبي ﷺ وسنته في بيان القرآن وتنفيذه لشرعه، وآثار خلفائه وعلماء أصحابه من بعده، كما يَعلم من يراجع في ذلك الكتاب الآيات الدالة على ما بيناه في كتابنا هذا من مقاصد القرآن باختصار، وما فصلناه منها في تفسير المنار.

الإسلام ليس له دولة ولا جماعات:

(رابعها) أن الإسلام ليس له دولة تقيم القرآن وسنة الرسول ﷺ بالحكم، وتتولى نشره بالعلم، ولا جماعات دينية تتولى بحمايتها الدعوة إليه بالحجة، وليس لأهله مجمع ديني علمي يُرْجَعُ إليه في بيان معاني القرآن وهدايته في سياسة البشر ومصالحهم العامة، التي تتجدد لهم بتجدد الحوادث ومخترعات العلوم والفنون، وفيما يتعارض بين العلوم ونصوص الدين، فيرجع إليها علماء الإفرنج في استبانة ما خفي عليهم من نصوصهما.

وأعجب من هذا وأغرب أن المسلمين أنفسهم قد تركوا من بعد خير القرون الأولى أخذ دينهم من القرآن المنزل ومن بيان الرسول ﷺ له كما أمره الله تعالى فيه بقوله ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]، وما زالوا يهجرون الاهتداء بهما حتى استغنوا عنها استغناء تاماً بأخذ عقائدهم عن كتب المتكلمين، وأخذ أحكام عباداتهم ومعاملاتهم عن كتب علماء المذاهب غير المجتهدين، وهذه الكتب لا تقوم بها حجة الله تعالى على البشر، ولا سيما أهل هذا العصر الذي ارتقت فيه جميع العلوم العقلية والتشريعية، حتى صار المسلمون منا يأخذون عنهم العلم، كما كان أجدادهم يأخذون عنا، بل فيها من آراء المتكلمين والفقهاء، وروايات الكذابين والضعفاء، ما قد يُعَد حجة على الإسلام

(1) أي لا يكفي في فهمها العلم بمتن اللغة العربية وقواعدها وبلاغتها وفقهها.

وأهله. كما أن سوء حال المسلمين في فشو الجهل في شعوبهم، والفساد والانحلال في حكوماتهم، قد اتُّخِذَ حجة على دينهم، فصاروا فتنة للذين كفروا به[1].

وإذا كان هذا حال المسلمين في فهم القرآن وهدايته فيكف يكون حال الشعوب التي نشأت على أديان أخرى أُلِفتها، ولها رؤساء يربونهم عليها ويصدونهم عن غيرها؟ ودول حربية قد عادت الإسلام منذ بضع قرون، بما لو وجهوه إلى الجبال لاندكت وزالت من الوجود، ولكنه دين الله الحي القيوم، فهو باقٍ ما دام البشر في الأرض لا يزول أو يزولوا أجمعون.

هذه أظهر الأسباب لخفاء حقيقة الإسلام الكاملة على علماء الحضارة العصرية من الأجانب ومن المسلمين أيضاً وتمنيهم لو يُبعث نبي جديد بهداية إلهية عامة كافية لإصلاحهم.

ولما كان الإسلام هو دين الإنسانية العام الدائم الجامع لكل ما يحتاج إليه جميع الشعوب من الهداية الدينية والدنيوية، وجب على العقلاء الأحرار والعلماء المستقلين الذين يتألمون من المفاسد المادية التي تفاقم شرها في هذا العهد، أن يعنوا بهتك تلك الحجب التي تحجبهم عن النظر فيه، وإزالة الموانع التي تعوقهم عن فهم حقيقته، وان يدعوا جميع الشعوب إلى أخوته، وتكميل الحضارة الإنسانية بهدايته.

نتيجة هذه المقدمات

بيان هذا الكتاب لحقيقة الإسلام، بما تقوم به الحجة على جميع الأنام

أما بعد، فإنني أقدم لهم هذا الكتاب الذي صنفته في إثبات «الوحي المحمدي»، وكون القرآن كلام الله عز وجل، وكونه مشتملاً على جميع ما يحتاج إليه البشر من الإصلاح الديني والاجتماعي والسياسي والمالي والحربي. وقد أطلت في بيان هذه المقاصد الأساسية بعض الإطالة لأنها مثار جميع الفتن والمفاسد التي يشكو منها عقلاء هذا العصر. وأما توفية هذا الموضوع حقه فلا يكون إلا في سِفْرٍ كبير أو

(1) أي صاروا منفرين للكافرين عن الإسلام وصادِّين لهم عنه لئلا يكونوا مثلهم، واقرأ قوله تعالى ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [الممتحنة:5].

أسفار، يُجمع فيها مقاصد القرآن كلها مع بيان حاجة البشر إليها في أمور معاشهم ومعادهم، وهو ما أبينه في تفسير المنار بإجمال قواعد كل سورة وأصولها في آخر تفسيرها، بعد بيانها بالتفصيل في شرح آياتها.

على أنني لم أكتب هذا البحث أول وهلة لهذا الغرض، وإنما بدأت منه بفصل استطرادي لتفسير آية ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ ﴾ [يونس:2] إلخ من أول سورة يونس، بينت به الدلائل القطعية على أن القرآن وحي من الله تعالى، كان محمد ﷺ يَعْجَزُ كغيره عن مثله بعلمه ولغته وتأثيره، وأنه ليس وحياً نفسياً نابعاً من نفسه، كما يزعم بعض الباحثين من الإفرنج وغيرهم، وأنه أعم وأكمل وأثبت من كل وحي كان قبله، وأن حجته قائمة على المؤمنين بالوحي التشريعي وعلى غيرهم.

ثم بدا لي في أثناء كتابته أن أجرده في كتاب خاص أدعو به شعوب الحضارة المادية من الإفرنج و اليابان إلى الإسلام، بتوجيهه أولاً إلى علمائهم الأحرار، حتى إذا ما اهتدوا به تولوا دعوة شعوبهم ودولهم إليه بلغاتهم، ولهذا زدت فيه على ما كتبته في التفسير، ووضعت له الخاتمة التي صرحت فيها بالدعوة وجعلتها هي المقصودة بالذات منه.

ولو أنني قصدت هذا منذ بدأت بالكتابة لوضعت له ترتيباً آخر يُغنيني عن بعض ما فيه من الاستطراد والتكرار بتحقيق كل مسألة في موضعها، على أن بعض التكرار متعمد فيها. ولكنني كتبته في أوقات متفرقة، وحالات بؤس وعسرة، لا أراجع عند موضوع منها ما قبله، ولا أعتمد إلا على ما أتذكره من القرآن نفسه، على صعوبة استحضار المعاني المتفرقة في سوره، وإلا بعض الأحاديث في مواضعها من كتبها لتخريجها والثقة بصحتها، وإني أحيل القاريء له في كل إجمال على مراجعة تفسير المنار في تفصيله، وفي كل إشكال على مراجعة محرره.

محمد رشيد رضا

منشيء مجلة المنار

وحررت هذه المقدمة في ليلة ذكرى المولد المحمدي من شهر ربيع الأول سنة 1352 (وهي على الأرجح عند المحدثين التاسعة من هذا الشهر – ونشر الكتاب في اليوم 12 منه وهو يوم المولد المشهور).

obeikandl.com

فاتحة الطبعة الثانية

دعوة الناس إلى الإسلام عامة وأهل الكتاب خاصة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ
وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَٰرُونَ وَسُلَيْمَٰنَ ۚ
وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ
عَلَيْكَ ۚ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى
ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ
بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ قَدْ ضَلُّوا۟ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٦٧﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ
وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾
يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ مِن رَّبِّكُمْ فَـَٔامِنُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ وَإِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ لِلَّهِ مَا
فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى
دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ
وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا
لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ
وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ
ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا
ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ
ٱسْتَنكَفُوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا
نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾[النساء].

ذُكر (الوحي المحمدي) في آيات متفرقة من السور المكية التي كانت تُتلى على منكري وحي النبوة من العرب، الذين كانوا أقوى البشر استعدادا لهداية هذا الوحي، إذا عقلوه وآمنوا به، لأنه لم يكن عندهم من التقاليد الدينية المسيطرة على القلوب والإرادات، ولا من أمشاج الفلسفة البشرية الشاغلة للعقول والأفكار، ولا من الاستبداد السياسي والاستعباد الروحاني السالبَين لاستقلال الأفراد والجماعات: ما يصرفهم عن فقهه وتدبره والاهتداء به، أو يأفكهم عن الدعوة إليه وحمايته، والجهاد بالأموال والأنفس في سبيل إقامته.

دعوة الوحي المحمدي في هذه الآيات:

ثم ذُكر في هذه الآيات من هذه السورة المدنية (النساء) ما لم يُذكر بمثلها في تفصيله وعموم الخطاب وخصوصه. فخاطب في أولها محمداً رسول الله وخاتم النبيين ﷺ ثم وجه الخطاب في بعضها إلى الناس كافة، وفي بعض آخر إلى أهل الكتاب خاصة، فبدأ خطاب الناس كافة بأنه قد جاءهم ﴿ٱلرَّسُولُ﴾[النساء:170] الكامل الذي بشر به الأنبياء والرسل، والنبي الأعظم الذي كانت تنظره الأقوام والأمم، ولذلك ذكر معرفاً بأداة التعريف[1]، وأنه جاءهم بالحق من ربهم، وهو الحق المحض الذي جهله المشركون، واختلف فيه الكتابيون، فضلوا في هداية أنبيائهم ورسلهم، وكَفَّر بعضهم بعضاً، ولعن بعضهم بعضاً، وكُتب الفريقين واحدة، وقد بين لهم ذلك في الآيات التي قبل هذه الآيات مباشرة، وأهمها الخلاف

(1) كان اليهود ينتظرون ثلاثة من الأنبياء المصلحين: المسيح وإلياء والنبي المطلق الذي بشر به موسى ومَن بعده. ومن أدلة ذلك: ما جاء في الفصل الأول من إنجيل يوحنا وملخصه: أنه لما ظهر يوحنا المعمدان (هو يحيى بن زكريا عليهما السلام) وصار يعمد الناس في نهر الأردن أرسلوا إليه وفداً ليعرفوا أي الثلاثة هو؟ فسألوه: أأنت المسيح؟ قال لا، قالوا: أأنت إيليا؟ قال لا، قالوا: أأنت النبي؟ قال لا «25» فسألوه وقالوا له: فما بالك تعمد الناس إذا كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي؟ إلخ فذكروا النبي مُعَرَّفاً، ولو قالوا له أأنت نبي؟ بالتنكير لما قال لا.

في رسولهم النبي الروحاني المصلح، المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام، ثم أعاد ذكره ونهاهم عن الغلو فيه في هذه الآيات وهي مشتملة على المسائل العشر الآتية:

(الأولى) أن الله تعالى أوحى إلى محمد ﷺ كما أوحى إلى نوح أول رسول أرسله إلى الأمم. قص عليه خبره في السور المكية، وإلى النبيين من بعده، فوحيه إليه كوحيه إليهم، أي مثله في جنسه وموضوعه والغرض منه، فهو ليس بدعاً من الرسل ولا أولهم، ولكنه خاتم الرسل المكمل لهدايتهم، وخص بالذكر منهم أشهر أنبياء بني إسرائيل المعروفين عند أهل الكتاب المجاورين له في الحجاز وما حوله، وقد كانت دعوته ﷺ بلغت اليهود والنصارى جميعاً فيها، والمراد بالأسباط الأنبياء من سلالة أبناء يعقوب، عمم ثم خصص.

(الثانية) أن له تعالى رسلاً آخرين منهم من قص عليه خبرهم في السور المكية إجمالاً كقوله في سورة الأنعام بعد قصة إبراهيم مع أبيه وقومه ﴿وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ﴾ [الأنعام:84] إلى قوله في الآية 90 ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنعام] وتفصيلاً في سورة الأعراف وهود ويوسف وطه والطواسين «الشعراء والنمل والقصص» وما دونهن. ومنهم من لم يقص عليه خبرهم من أنبياء سائر الأمم لعدم العبرة لقومهم ولجيرانهم بقصصهم، وعدم ظهور إقامة الحجة بها عليهم، وربما كان ذكر بعضها فتنة لبعضهم: يدعون أنها أسماء مخترعة، وقد جاء في بعض السور: أنه تعالى أرسل في كل أمة رسولاً، وترى هذا في موضع آخر من هذا الكتاب بشواهده، وهو حجة على أهل الكتاب الذين يحصرون فضل الله على البشر بالنبوة فيهم.

(الثالثة) أن وظيفة جميع الرسل تعليم الناس ما به يصلح حالهم، ويستعدون لمآلهم بطريق التبشير لمن آمن وأصلح عملاً بحسن الثواب، وإنذار من كفر وأفسد عملاً بالعقاب، وحكمة ذلك أن لا يكون للناس على الله حجة بجهلهم ما يجب عليهم من أصول الإيمان، وما تصلح به الأنفس وتتزكى من صالح الأعمال،

فتستعد لسعادة الدنيا بقدرها، وسعادة الآخرة من بعدها. وقد فصلنا في هذا الكتاب وجه الحاجة إلى هدايتهم، وعجز البشر عن الاستقلال بمعرفتها بعقولهم.

(الرابعة) شهادة الله تعالى وشهادة ملائكته بصحة هذا الوحي له ﷺ، وأورد هذه الشهادة مفتتحة بقوله ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ﴾ [النساء:166]، وهو استدراك على إنكار معلوم من قرينة حال الكفار به ﷺ من المشركين وأهل الكتاب، ومما حكاه من قبل عن المشركين من الإنكار والمطالبة بالآية أو الآيات، كما تراه في سورتي الأنعام ويونس وغيرهما، ثم ما حكاه قريباً في هذه السورة (النساء) عن اليهود بقوله ﴿يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [النساء:153] الخ، فهو تعالى يقول له: إن أولئك المشركين ينكرون وحي الله إليك وإلى غيرك، وإن هؤلاء الجاحدين يكتمون الشهادة بنبوتك وبشارة أنبيائهم بها ﴿لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ﴾ [النساء:166] الخ.

فأما شهادته تعالى فقد بينها بياناً مستأنفاً لوقوعها جواباً لسؤال مقدر، وهو قوله ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾ [النساء:166]، أي أنزل هذا القرآن الذي أوحاه إليك متلبساً بعلمه الخاص الذي لا تعلمه أنت ولا قومك، من تشريع وحِكَم وآداب وعبر وأخبار غيب سابقة وحاضرة وآتية، بأسلوب معجز للبشر وهو ما يفصله هذا الكتاب بالشواهد من السور العديدة – وأما شهادة الملائكة له فما أخبر به تعالى من نزول الروح الأمين جبريل عليه السلام عليه بهذا القرآن، وما أيده به يوم الفرقان يوم التقى الجمعان في غزوة بدر، وكذا غزوة الأحزاب وحنين، وفي أحوال أخر.

هذه الشهادة من الله، بهذا القرآن الذي لا يمكن أن يكون إلا من الله حق، لا ريب فيه، وهي أظهر من شهادة يوحنا (يحي) للمسيح (عليهما السلام)، إذ روى يوحنا أنه قال (5 : 31 إن كنت أشهد لنفسي فليست شهادتي حقاً 32 الذي يشهد لي هو آخر، وأنا أعلم أن شهادته التي يشهدها لي هي حق 33 أنتم أرسلتم إلى يوحنا فشهد للحق). وكذلك هي أظهر وأقوى من شهادة المسيح لنفسه فيما رواه

يوحنا أيضاً إذ دعا اليهود إلى اتباع النور الذي جاء به (138 فقال له الفِرِّيسيون: أنت تشهد لنفسك، شهادتك ليست حقاً 14 فأجاب يسوع وقال لهم: وإن كنت أشهد لنفسي فشهادتي حق) وقد صدق عليه السلام في أن شهادته لنفسه حق. ولكن لا تقوم بها الحجة على الخصم، وأما شهادة الله تعالى لنبيه في القرآن فهي حجة على كل أحد يعجز عن الإتيان بمثله، فهي إذن حجة على كل أحد.

(الخامسة) الإخبار في الآيات 167 – 169 بحال الكفار الذين يتعدى ضررهم إلى غيرهم من الناس، بصدهم الناس عن سبيل الله وهي الإسلام وبظلمهم لأنفسهم وللناس، وكون جزائهم بحسب سنة الله في أنفس البشر ونظام الاجتماع أن يظلوا سائرين على طريق الباطل والشر الموصلة إلى عذاب جهنم، إذ لا يغفر الله تعالى لهم إلا بتزكية أنفسهم بالإيمان والعمل الصالح الذي يهدي إليه الوحي، وقد صاروا بضلالهم في أشد البعد عنه، خلافاً لما يقوله الكفار من نيل المغفرة بجاه الشفعاء الشخصي مع بقاء الأنفس على فسادها، وظلمات ظلمها وجهلها، وهو ما سرى إلى أهل الكتاب من المشركين. إلا أن بعض النصارى خصوه بالمسيح وبعضهم جعلوه عاماً لجميع القديسين.

(السادسة) مخاطبة جميع الناس في الآية 170 بأن هذا الرسول محمداً ﷺ قد جاءهم بالحق من ربهم حقاً محضاً غير مشوب بالآراء والأهواء البشرية ولا بالتقاليد الكهنوتية[1] التي زادها رؤساء الأديان على ما جاءهم به الرسل الأولون فلم يعد أحد يعرف ما هو من الله تعالى وما هو منهم، فإن يؤمنوا بما جاءهم به هذا الرسول يكن خيراً لهم، وإن يكفروا فالله غني عنهم.

(السابعة) نداؤه أهل الكتاب في الآية 171 بالنهي عن الغلو في الدين وعن قول غير الحق على الله تعالى، وبيانه لهم حقيقة المسيح الذي غلا اليهود منهم في الكفر به وتكذيبه والطعن في صيانة أمه الطاهرة – وغلا النصارى فيه فجعلوه رباً

(1) الكهنوتية نسبة إلى الكهنوت، وهي كلمة دخيلة من إصطلاح النصارى واليهود والوثنيين، معناها وظيفة الكاهن، وهو الذي يتولى بعض التقاليد الدينية المختلفة عند كل منهم.

وإلهاً، وأنه قد جاءهم بالحق فيه، وهو أنه بَشَر روحاني خُلق بكلمة الله التكوينية وهي ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٨٢﴾ [يس]، وبنفخ روح القدس في أمه الطاهرة، وبتأييد هذا الروح له في سائر أحوال نبوته وأن روحه عليه السلام قدسية من الله تعالى، لا حظ للشيطان فيها. والنصارى يقررون أن الأرواح قسمان: طاهرة قدسية، ونجسة شيطانية، والتمييز بينهما مزية تَحَدَّث بها زعيمهم بولس في رسالته الأولى إلى أهل كورنثيوس.

(الثامنة) أمره تعالى أهل الكتاب بعد ما ذكر من حقيقة أمر المسيح أن يؤمنوا بما جاء به خاتم النبيين من الإيمان الصحيح بالله وتوحيده والإيمان برسله ونهيهم عن التثليث الوثني الهندي، وعن اتخاذ الولد لله عز وجل، وعلله بأنه المالك لكل ما في السموات والأرض، أي كل العالم، ولو كان له ولد لكان ولده مثله لا ملكه ولكان محتاجاً كاحتياج الإنسان إلى ولده، سبحانه هو الغني عن كل ما سواه: كما هو مبين في الآيات الكثيرة الواردة في هذا المعنى[1].

(التاسعة) إنباؤهم في الآية 172 بأن المسيح نفسه لن يستنكف -أي لن يأبى أنفة وإستكباراً- عن أن يكون عبداً لله، ولا الملائكة المقربون وهم أفضل الملائكة وأعلاهم منزلة عنده تعالى أن يكونوا عبيداً له، فإنه ما ثَمَّ في الوجود إلا رب أحد، كل من عداه عبيد له، فالمؤمنون الذين يؤمنون بربوبيته ويعملون الصالحات تعبداً له يوفيهم أجورهم ويزيدهم عليها ثواباً ونعيماً فضلاً منه وإحساناً. والذين يستنكفون ويستكبرون عنها يعذبهم عذاباً أليماً، ولا يجدون لهم من دونه -أي غيره- ولياً يتولى أمورهم ويغفر لهم، ولا نصيراً ينصرهم بشفاعة ولا فدية ولا غيرها، فلا يغرنهم ما يدعيه الرؤساء الذين استعبدوهم من أن خلاصهم وسعادتهم، يكونان من غير أنفسهم.

(العاشر) نداؤه للناس كافة في الآيتين 174 و 175 مبشراً لهم بأنه قد جاءهم البرهان العلمي العقلي من ربهم، وأنزل عليهم النور الساطع، وهو القرآن المبين

(1) راجع سورة يونس (10 : 68) وآخر سورة مريم وغيرهما.

لجميع الحقائق، فلا ينبغي لأحد منهم أن يصغي بعدها إلى تقليد الرؤساء والكهنة الذين استعبدوهم لرياستهم وأهوائهم، وأثبت لهم أن الإيمان به، والاعتصام بحبله المتين، والدخول في نوره المبين، هو الذي يخرجهم من شقاء الدنيا ويدخلهم في رحمة خاصة وفضل عظيم، يمتازون بها على غيرهم من البشر، ويهديهم بإرشاده وفيض نوره صراطاً مستقيماً من العلم والعمل، والحق والعدل والفضل، يكونون به سعداء الدنيا والآخرة.

***

هذا مضمون الوحي الإلهي المنزل على محمد رسول الله وخاتم النبيين، المبين في هذه الآيات، ظهر نوره فإهتدت به العرب، وحملته إلى شعوب العجم، بالتبليغ له بالعلم والعمل، فاهتدى به السواد الأعظم ممن بلغتهم دعوته من الملیين الكتابيين، والمجوس والوثنيين، والهمج المعطلين، لأنه دين البشر أجمعين. وقاومته الدول الدينية، من نصرانية ومجوسية ووثنية، فنصره الله عليهم كلهم كما وعدهم، حتى أظهره على الدين كله، ولا يزال ينصره وينشره بعد ترك دوله لدعوته، وإعراضهم عن هدايته، وما نزل بهم من عقوبته لهم كما أوعدهم، ولو ثبتوا على إقامته لعم نوره العالم، ولاستراح البشر من هذه العداوات الجنسية والوطنية والسياسية، ولو لقي غيره من الأديان، مثل ما لقي من البغي والعدوان، لأصبح في خبر كان.

ثم إن حاجة الأمم قد اشتدت في عصرنا هذا إلى هدايته، حتى أشدها إمعاناً في عداوته، ولجاجاً في نكايته، وجهلاً بحقيقته (فأخرجت هذا الكتاب من هداية القرآن)، لتجديد دعوته بما يناسب ضرورة هذا الزمان، ولو أنني حين شرعت في كتابة مباحثه في المرة الأولى، أردت أن يكون كتاباً مستقلاً في تجديد الدعوة إلى الإسلام، لافتتحته بهذه الآيات، وإن سبق لي تفسيرها المفصل في آخر سورة النساء، ثم لنشرت بعض ما طويت من وجوه إعجازه، ولفصلت ما أجملت من مقاصد إصلاحه، ولبسطت ما قبضت من دلائله، ولاجتنبت فيه الإحالة في بسط ما طُوي، وتفصيل ما أُجمل، على أجزاء تفسير المنار المطول، التي اختصرتُ جل المقاصد

وشواهدها منها، لأنها مما يشغل القارئين للكتاب، وربما كان أكثرهم لا يَقتنون تلك الأجزاء، ولذلك انتقد هذه الإحالة وبعض الاختصار فيه بعض من قرأه – قولاً وكتابة بحق، وكنت أسبقهم إلى ذلك.

رواج الكتاب وترجمته ببضع لغات:

لقد راج هذا الكتاب أضعاف ما رجونا، ونال من ثناء رجال العلوم الدينية ورجال المعارف المدنية العصرية فوق ما قدرنا، حتى قال كاتب مدني شهير: إنه لم ير كتاباً عربياً نُشر في هذا العصر وكان له من حسن القبول عند جميع أصناف القراء حتى الذين لا يُعْنَوُن بأمر الدين مثل ما كان لهذا الكتاب «الوحي» وقد صدق قوله، فإنه لم يمر على بدء نشره ثلاثة أشهر إلا وقد كادت تنفد نسخه. حتى قللنا من بيعه لتجار الكتب بالجملة، لئلا تَنفد قبل التمكن من إعادة طبعه منقحاً، مبسوطاً مفصلاً.

وقد استأذنني بعض المستنيرين ومحبي الإصلاح الإسلامي من الشعوب الإسلامية بترجمته باللغات الغربية والشرقية المختلفة فأذنت لإمام جامع وكنج ومحرر مجلة الإسلام (ريفيو إسلاميك) في لندن وداعية الإسلام فيها بترجمته باللغة الإنكليزية ونشره في أوربة وأميركة مترجماً[1]. وأذنت أيضاً بترجمته باللغات الأوردية والتركية والفارسية والصينية، وسأذكر ما يكون من أمر هذه الترجمات في المقال الذي أجعله تصديراً لهذه الطبعة (الثانية).

ولقد كنت على ما أسمع وما أقرأ من تقريظه وإطرائه، أحرص على العلم بما يراه أولو العلم والرأي من إنتقاده، وسألت كثيرا عن هذا ولم أسألهم عن ذلك، وبعد هذا كله شرعت في إعداده لهذه الطبعة الثانية له.

(1) بلغني أنه ترجم بعض الفصول والمباحث ولم يترجم الكتاب كله.